

التكامل المعرفي وعوامل النبوغ

دراسة مقارنة بين الإمامين القرافي والأخضري

د. عطية طيباوي

جامعة زيان عاشور – الجلفة –

ملخص بالإنجليزية

The knowledge completion and the factors of genoies A comparative study between the two imams Elkorafi and elakhadri .

There are many of our ancestors like Ibn Hazm and Ibn Rochd and many others who had and almost complete. knowledge of all sciences of their time . Two of these scientists are one in the Fast who is Imam Elkorafi (684 h) and one in the west and that is Imam Elakhdari (953h) Elkhorafi was geniues in Grammar . figh . Mathematcis . Astronomy where as Elakhdari was genuis in logic , Astronomy , Algebra ... etc

توطئة :

ما أسعد المرء وهو يتملى بسير الأولين ، يتقصى الخطأ ، مندبجا في رحابهم الفينان ، ويرعى انتباهه في ذلك أثرهم في خالفهم ، سلوكا وأقوالا ، وتشعّ أسماؤهم في نفسه جذبا وإقبالا ويرسخ صنيعهم في لبّه حكمة واقتدارا. لقد احتوشوا العلوم فحصلوا الحدود وأقاموا الرسوم ، وما انفكّ فكرهم يسرح في ميادين المعرفة ، ففتقوا المفتق وحصلوا المحمل ، وجمعوا المتناثر وألقوا العجز وأحلوا الممكن .

ثم إن هذه المواهب والملكات تخلق في سماء المعرفة والعلوم ، وتدور في فلك الأنفس والأذهان ، إلّا أنّ مستقرّها وفننها الذي ترسوا عليه هو تلك المهمة التي تلامس عنان السماء، والتي تدرجت في مراتب الترقى ، والانهماك في بحار المعارف والثقافات ، لتحيط بكنه الإبداع والابتكار .

إنّ هذه المفاهيم والتجليات السالفة تصدق على كثير من أسلافنا ممن ازدانت به الرقعة الإسلامية، من أمثال ابن حزم وابن رشد والمازري.... ممن جسدوا الإحاطة وانطبّعوا بالتكامل ولعلّ ممن انطبقت عليهم هذه الأوصاف الأخيرة أيضا وأبرزوا نبوغا عزّ نظيره في الأقران ، بله من تأخّر من العلماء والباحثين شمعتان.

أولاهما أضاءت سماء المشرق وأعني بها الإمام شهاب الدين القرافي،الذي برع في النحو والأصول والفقه والرياضيات والفلك والصناعة ...

أما الأخرى فقد بددت ظلمة المغرب وأقصد بها الإمام الأخضري، أحد مناطق القرن العاشر الهجري ، فقد حصّل البلاغة والفرائض والحساب والمنطق وعلم الفلك....

ولقد جاءت هذه الدراسة المقارنة بين العلمين رغم اختلاف الزمان والمكان والبيئة والظروف ،لتطرح الإشكال الذي ينبغي أن يثار: ما هي حدود علميهما وما عوامل نبوغهما ، ثم ما هي حظوظ الإبداع لديهما؟. لقد اقتضت هذه الدراسة توظيف المنهج المقارن لما تتطلبه طبيعة الموضوع، وللوصول إلى نتائج لا يتأتى أمرها إلا بهذا الأخير، بالإضافة إلى المنهج الوصفي التحليلي حسب ورود الأقوال والمآثر المروية عن عالمينا (القراقي و الأخضري) .

وللولوج إلى ما أشرنا إليه آنفاً تمّ رسم الخطة الآتية ، وإليك بيانها:

1/ مقدمة.

2/ المبحث الأول : التعريف بالإمامين (القراقي والأخضري).

3/ المبحث الثاني : القراقي والأخضري بين الرفعة والمعرفة والمكانة والمكنة.

4/ المبحث الثالث : العوامل النبوغية والحظوظ الإبداعية للرجلين.

5/ الخاتمة والنتائج.

المبحث الأول: التعريف بالإمامين

الأول هو أحمد بن إدريس، الشيخ الإمام العالم الفقيه الأصولي شهاب الدين الصنهاجي الأصل المشهور بالقراقي¹ (682هـ - 626هـ).

ونسب إلى القرافة من غير أن يسكنها، وإنما سئل عنه عند تفرقة الجامكية بمدرسة الصباح ابن شكر فقيل عنه: توجه إلى القرافة، فقال بعض من حضر: اكتبوه القراقي، فلزمه ذلك، وإنما أصله من قرية من قرى بوش من صعيد مصر الأسفل تعرف بيهبشيم.

كان مالكيًا إمامًا في أصول الفقه وأصول الدين، عالماً بالتفسير والعلوم العقلية ...

وولي تدريس المدرسة الصالحية بعد وفاة الشيخ شرف الدين السبكي، ثم أخرجت عنه لقاضي القضاة نفيس الدين، ثم أعيدت إليه بعد مدة، ودرس بمدرسة طبرس، وبجامع مصر.

انتهت إليه رئاسة الفقه على مذهب مالك رحمه الله تعالى، وجدّ في طلب العلوم فبلغ الغاية القصوى ، فهو الإمام الحافظ ، دلت مصنفاته على غزارة فوائده وأعربت عن حسن مقاصده جمع فأوعى وفاق أضرابه جنساً ونوعاً، وتخرج به جمع من الفضلاء .

وفاته :بعد حياة عامرة بالطلب والاجتهاد والتدريس ونشر العلم والأخلاق انتقل القراقي إلى جوار ربه.

وتوفي بدير الطين ظاهر مصر، ودفن بالقرافة سنة اثنتين وثمانين وستمائة.

وكانت وفاته بعد وفاة صدر الدين بن بنت الأعز ونفيس الدين المالكي.

شيوخه:

أخذ الإمام القراقي العلم عن كثير من الشيوخ منهم:

➤ الإمام شرف الدين: محمد بن عمران الشهير بالشريف الكركي .

➤ قاضي القضاة شمس الدين: أبي بكر: محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المقدسي.

➤ العالم والفقيه الأصولي العز بن عبد السلام.

➤ الفقيه والمتكلم الخسروشاهي.

➤ الفقيه والمتكلم ابن الحاجب.

من تلامذته :

➤ ابن بنت الأعز.

➤ تاج الدين الفاكهاني.

➤ أبو عبد الله القفصي.

➤ شهاب الدين المرادوي.

مؤلفاته :

حرر القرافي الكثير من المؤلفات ، والتي أطبق المشرق والمغرب على ملاحظتها ونوعها ، بين المحقق والمخطوط

في المكتبات ، وإليك الأهم :

➤ كتاب الذخيرة في الفقه من أجل كتب المالكية.

➤ كتاب شرح تهذيب المدونة للبراذعي.

➤ كتاب شرح الجلاب .

➤ نفائس الأصول في شرح محصول الإمام فخر الدين الرازي .

➤ كتاب التعليقات على المنتخب .

➤ - كتاب التنقيح في أصول الفقه وهو مقدمة الذخيرة .

➤ كتاب الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاخرة في الرد على أهل الكتاب .

➤ كتاب الأمنية في إدراك النية .

➤ كتاب الاستغناء في أحكام الاستثناء.

➤ كتاب الإحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام .

➤ كتاب اليواقيت في أحكام المواقيت .

➤ كتاب شرح الأربعين لعز الدين الرازي في أصول الدين.

➤ كتاب الانتقاد في الاعتقاد .

➤ كتاب المنجيات والموبقات في الأدعية وما يجوز منها وما يكره .

➤ كتاب الإبصار في مدركات الأبصار.

➤ - كتاب البيان في تعليق الإيمان .

➤ كتاب العموم ورفعته .

➤ - كتاب الأجوبة عن الأسئلة الواردة على خطب ابن نباتة .

➤ كتاب الاحتمالات المرجوحة .

➤ الخصائص في قواعد العربية.

➤ كتاب العقد المنظوم في الخصوص والعموم.

➤ المناظر في الرياضيات.

الثاني : الإمام عبد الرحمن الأخضري² (920 هـ — 953 هـ)

هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عامر الأخضري، ولد في بنطوس من قرى نواحي بسكرة ، وهناك نما وشبّ وأخذ العلم عن والده وشقيقه الأكبر ، وكان والده محمد الصغير من علماء الوقت أيضا ، وتذكر بعض الروايات أن الأخضري قد طلب العلم أيضا بقسنطينة ، وأخذ على الشيخ عمر الوزان كما طلبه بتونس وأخذه على مشايخ جامع الزيتونة ولكن هذه الرواية غير مؤكدة ، سيما إذا عرفنا أن حياة الأخضري نفسها ما تزال غامضة.

ذلك أن معظم المترجمين له يذهبون إلى أنه قد عاش ثلاثا وثلاثين سنة ، وزبدة القول أن الأخضري قضى حياته في التعليم والكتابة في زاوية عائلته في بنطوس ، وتخرج على يديه تلاميذ عديدون ، وكان يذهب في الصيف إلى الهضاب العليا - سطيف - للابتعاد فأدركته الوفاة في أحد الأصيف في كجال ، بناء على معظم الروايات.

مؤلفاته :

ترك الأخضري تراثا زاخرا من أهمه :

➤ السلم المرونق: في المنطق.

➤ شرح السلم .

➤ الجوهر المكنون : نظم، في البيان.

➤ شرح السراج : في علم الفلك.

➤ الدرة البيضاء : في علمي الفرائض والحساب.

➤ مختصر في العبادات.

➤ منظومة القدسية.

المبحث الثاني : القرافي والأخضري بين الرفعة والمعرفة والمكانة والمكنة.

أما الأوّل فهو إشعاع من الحضارة العربية وخيط من أنوارها ، لا ينفك أثره فيرى في خالفه موزع المعرفة ، جليل الرفعة ، زاد من قيمة البسيطة التي اكتنفتها وارتقى بها إلى مراتب أعلى وأوفى، وقد تجلّت معرفته في تلك القريحة العلمية السيالة ، حيث نحت معرفته من صخر ولم يستسلم لزمه الذي لا يُسوغ عقلية الاجتهاد ، أي أنّ القرن السابع الهجري يعدّ أحلك العصور التي مرت بالمسلمين ، حروب التتار التي أتت على الأخضر واليابس ، والحملات الصليبية ، وما أحدثته من شرخ وتصدع داخل بيئة عالمنا - القرافي - فالعصر عصر الانحطاط³ والتشردم.

إلا أنّ ذلك لم يمنع من امتداد إنتاجه ، وتوّجت حياته بتأليف سارت بها الركبان، وقد ساعدته هذه المعارف المتنوعة بالتربّع على كراسي الرفعة وأماكن الإجلال والمهابة .

فالقراقي جعل من مكنته هذا سدا حصيناً ومنيعاً ، تكسرت عليه كل حملات اليأس والجهل والجمود، فبواته مكانة عجز عنها الكثير ممن أرادوا .

فتميّزه هذا حَمَلَةٌ وأعطاه بعداً آخر يفصله من سواه من العلماء والباحثين والمجتهدين .
ثم إنّ هذا المخزون الثقافي والمعرفي الذي بناه مِدَاد القراقي المعرفي، ودمه الجسماني في تلك الرحلة الطلبية التي دامت ردحا من الزمن.

إن مؤلفات القراقي تتمتع بالتنوع والإجادة لا الكثرة والتكرار، كما يغلب عليها الجِدَّة والإبداع الذي سنتكلم عنه في المبحث الثالث.

وإذا كانت هذه المؤلفات قد حيرت العقول فإنّ القراقي يدرك أن العلوم خادمة لبعضها كما صرّح بذلك في تأليفه ، غير أنّ المهم والعجيب في الأمر هو خروجه عن المألوف ولكن إلى جانبه الإيجابي ، فنجدته قد ابتكر صنيعاً وهو في فن الميكانيك.

فإنّقائه لهذا العلم هو الذي مكنه من اختراع آلة قال فيها مترجمه : "وكان مع تبحره في عدة فنون، من البارعين في عمل التماثيل المتحركة في الآلات الفلكية وغيرها، نقل عن كتابه (شرح المحصول) قوله: بلغني أن الملك الكامل وضع له شمعدان كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب منه، وخرج منه شخص يقف في خدمة الملك، فإذا انقضت عشر ساعات طلع الشخص على أعلى الشمعدان، وقال: صبح الله السلطان بالسعادة. فيعلم أن الفجر قد طلع. قال: وعملت أنا هذا الشمعدان، وزدت فيه أن الشمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة، في كل ساعة لها لون، فإذا طلع الفجر طلع شخص على أعلى الشمعدان، وإصبعه في أذنه يشير إلى الأذن، غير أني عجزت عن صنعة الكلام"⁴
و نحن ندندن عن هذه المكنة البارزة والمعرفة اللامعة في هذا التكامل المعرفي الذي جعل القراقي محطّ أنظار العلماء والباحثين عبر توالي الأزمان.

وعن هذه المكانة قال الشيخ ابن علان الشافعي :

"أخبرني خالي الحافظ شيخ الشافعية بالديار المصرية ، أن شهاب الدين القراقي حرّر أحد عشر علماً في ثمانية أشهر . أو قال ثمانية علوم في أحد عشر شهراً .

وذكر عن قاضي القضاة تقي الدين ابن بكر قال : أجمع الشافعية والمالكية على أنّ أفضل أهل عصرنا بالديار المصرية ثلاثة.. القراقي بمصر القديمة ، والشيخ ناصر الدين ابن مُنِير بالإسكندرية ، والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد بالقاهرة (المعزية) ، وكلهم مالكية خلا الشيخ تقي الدين فإنه جمع بين المذهبين "⁵.

وقال ابن فرحون : "كان أحسن من ألقى الدروس وحلي من بديع كلامه نحور الطروس إن عرضت حادثة فبحسن توضيحه تزول وبعزمته تحول"⁶.

وأخيراً فإن القراقي يعرف بشخصه قبل مؤلفاته ، فلا يكاد يذكر القراقي إلا ويتراءى لك ذلك الزخم المعرفي الكبير من الفقه والأصول والعقيدة والأخلاق ...

أما الإمام الأخضرري :

فقد نال كل وسام وحقق ما عجزت عنه الإرادات ، إن إمامنا هذا رغم سنواته القليلة التي سخرها لخدائق العلم ، قد ألفت بظللها على من عايشه أو جاء بعده ، حيث إنَّ الأخصري طار في المعرفة شرقا وغربا ، كما أنَّه قد بدت عليه علامات النبوغ والافتقار، وأنَّ الزمن لم يسعفه للمزيد من التأليف والتصنيف ، إلَّا أنَّ البركة كانت حاضرة في دقائق حياته.

فالمعرفة بتلك الفنون المختلفة جعلت له شأوا كبيرا ومرتبة سامقة .

ولنترك الدكتور أبو القاسم سعد الله يروي لنا عن معرفة ومُكنة الأخصري ، ...ولكنَّ نواحي بسكرة أرسلت إلى الوزَّان . حسب بعض الروايات :

" عبد الرحمن الأخصري الذي عرف بمنظوماته في علوم شتى وبشروحه عليها ، والذي لفت إليه الأنظار بنبوغه في الحساب والفرائض والبيان وغيرها ... " ⁷ ونظرا لهذه المكنة التي أولته مكانة ولما لهذه المعرفة فقد أعطته رفعة ، فنجد أنَّ بايات قسنطينة يعفون عددا من الزوايا... من دفع الضرائب ومنها زاوية عبد الرحمن الأخصري في بنطوس ، كما تنصُّ الوثائق على ضرورة احترام الناس لعائلته ونسله فقد وجد أحد الباحثين ما يؤكّد ذلك في وثائق كتبت بعد وفاة الأخصري بمائة وأربع عشرة سنة وجميعها متهورة بخواتم بايات قسنطينة " ⁸.

ومما ينبغي إشاعته والوقوف عليه ما نصَّ عليه أبو القاسم سعد الله وعبد الرحمن الأخصري وغيره خير شاهد على ذلك ، فهم قد أضافوا إلى العلم الزهد والتصوف والتجرّد عن الهوى ⁹.

إنَّ الأخصري قد كانت له ملامح التكامل المعرفي في بداية حياته ، وذلك أنَّه حصّل العلوم المساعدة مثل المنطق والحساب ... ممّا جعلت مقوّمات التكامل تتجسّد في شخصه أخيرا .

إنَّ دراسة سيرة الأخصري هي: " خير وسيلة لإشعال العزائم وإثارة الروح الوثابة ، وقدرح المواهب وإذكاء الهمم وتقويم الأخلاق وإثارة الروح الوثابة ... إنَّ الاقتراب من العلماء النبهاء العاملين المجدين فذلك خير مهمّاز لرفع الهمم وشدّ العزائم... " ¹⁰.

وإذا كنّا قد وضعنا الرحال في حياة القرافي ونقلنا تلك الصناعة " الشمعدان " أما باقي المؤلفات فهي كالشمس في رابعة النهار.

فإنّنا نوّد أن نقف في مبتكرات الأخصري عند نظم السراج في علم الفلك ، لأن باقي التصانيف هي أشهر من نار على علم ، ولا يختلف عليها اثنان في جودتها ورصفها وملاحظتها ورونتها ، أو لم يُنقل السلم المرونق في علم المنطق إلى الفرنسية كما فعل لوسيان.

المبحث الثالث : الكوامل النبوغية والحضوظ الإبداعية .

إنَّ ما تعرّضنا له في المبحثين الآنفين يوحى بأنّه لا يوجد نبوغ وإبداع إلا عن طريق عمق معرفي لا مكان فيه للسطحيات وملكة بنيت من خلال تراكم علم طارف وتليد .

ولا يمتري أحد فيما حازه الرجال من تلك الإحادة لفنون عدة وسعة الاطلاع والإحاطة والغوص في دروب الاجتهاد، كما أن هناك أسبابا أخرى ذاتية تمثلت فيما وهبه الله لهما من استعداد ذهني وهمة عالية وأخلاق عظيمة وكان لتلك الأسباب أثر كبير فيما وصلا إليه من مكانة علمية عالية ¹¹.

ثم إن النظرة العلمية الفاحصة تسلم بأن القرافي والأخضري قد قيدا الشارد والوارد من تلك البحور المعرفية ،
مما حازا مقام التجلّة والإكبار .

وإن شئت الوقوف بين ملكاتهم وكلماتهم فإليك ذلك أيها المستبصر والمستزيد قال القرافي: " ولقد رأيت وأنا في
أول اشتغالي بالعلم جماعة من الفضلاء يتباحثون في الفرق وأنا أسمعهم يبحثون ولم يكن في أهليّة مخالطتهم فيما هم
فيه غير أنني أفهم عنهم حينئذ مقاصدهم وعباراتهم وصغر السن يمنع من مداخلتهم..."¹² .

إن هذا يوحى بتلك الموهبة والإبداع اللدني منذ الفترة الباكّة من حياة القرافي ، ورغم هذا الحظ إلا أن القرافي لم
يسلم به ويركن إلى الدعة والتوقف بل زاد ذلك من تحصيله ودأبه ، فسعى إلى تجميع العلوم وعدم الانهماك بعلم
واحد بدعوى التخصص - كما هو الحال في عصرنا - وذلك لمقاصد قدرها و آراء تبصرها.

قال القرافي : وكم يخفى على الفقيه والحاكم الحق في المسائل الكثيرة بسبب الجهل بالحساب والطب والهندسة.

فينبغي لذوي الهمم العالية أن لا يتركوا الاطلاع على العلوم ما امكنهم .

فلم أر في عيوب الناس عيبا ... كنقص القادرين على التمام¹³ .

إن الإمام القرافي بكلامه النفيس هذا يورد مقصد آخر تابعا له، ولا يدعو لهذا إلا ذوو الألباب الحصيفة ، حيث
بيّن طريقة الجمع والتحصيل هذه، أو قل مكامن العلوم.

حيث نجده يقول :

... وهذه القواعد مهمة في الفقه عظيمة النفع وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ، ويشرف ويظهر رونق الفقه
ويُعرف وتتضح مناهج الفتاوى وتكشف، فيها تنافس العلماء وتفاضل الفضلاء ، وبرز القارح على الجذع وحاز
قصب السبق من فيها برع ، ومن جعل يُخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقصت عليه
الفروع واختلفت وتزلزلت خواطره فيها واضطربت ... واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تنتهي وانتهى العمر
ولم تقض نفسه من طلب مناهجها ومن ضبط الفقه بقواعده ، استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في
الكليات.... وأجاب الشاسع البعيد، وقارب وحصل طلبته في أقرب الأزمان... فبين المقامين شأو بعيد وبين
المتزلتين تفاوت شديد " ¹⁴ .

إن هذه المرامي تكشف عن عمق النظريات القرافية وإلى هذا المترع نحى قبله ابن رشد في قضية الإمام وكيفية
ترتيب ذلك وصناعته، كما جاء في بداية المجتهد، وتحديدًا تلك العبارات الجزلة والمقاصد المتوخاة التي أوردتها في
باب الصرف . فالقرافي يجسد نظرية تأصيل العلوم وتفريغ المسائل .

وفي طلب المعرفة والعلم والدعوة إلى بسط اليد على فنونهما يعلّل القرافي هذا التنادي :

" إن العلوم يشرف بعضها ببعض...." ¹⁵

وقال في موضع آخر : "من اشتغل بالعلوم وكثر تحصيله لها اطلع على شيء كثير من ذلك " ¹⁶ . وإذا كنا قد

أشرنا في المبحث السالف إلى قضية تلك الصناعة والإنتاج العلمي الذي هو بحق رصيد للحضارة الإسلامية:

فإنه قد بلغ أبعد من ذلك وفاق التفكير والمعقول . فنجد في حديثه عن القيافة والتي هي منة ربانية لبعض عباده ،
ف نجد القرافي يعلق عليها بقوله :

" إن القيافة لو كانت علما لأمكن اكتسابه كسائر العلوم" ¹⁷.

إن هذا غيظ من فيض حول تلك الصناعة العلمية والمعرفية ، ثم إن هذا التكامل المعرفي وهذا النبوغ الجلل كان مادّة مناقشتهم وكتاباتهم وثنائهم ، ومن ذلك قول القرافي وهو يثني على أحد العلماء :

" كان رئيس زمانه في العلوم وسيّد وقته في التحصيل والمفهوم" ¹⁸.

إن هذا الصنيع كان ديدن القرافي في أقواله وأحواله وآثاره ، قال الدكتور محمد حجي عن كتاب الذخيرة :

" إنه يظهر عبقرية مؤلف الذخيرة وموسوعيته في مزجه بين الفقه وأصوله واللغة وقواعدها والمنطق والفلسفة والحساب والجبر والمقابلة في المواطن التي تقتضيها" ¹⁹.

وبعد هذه النقول للمرء أن يتساءل عن هذا الدافع الذي جعل القرافي أو قل الأسوة في الاقتداء بما أشرنا إليه ، لتجد ذلك قد بثّه في ثنايا فروقه قائلا : - " أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانوا بجارا في العلوم على اختلاف أنواعها من الشرعيات والعقليات والحسابيات والسياسات والعلوم الباطنة والظاهرة ، حتى يروى أنّ عليا (رضي الله عنه) جلس عند ابن عباس (رضي الله عنهما) يتكلم في الباء من بسم الله من العشاء إلى أن طلع الفجر... " ²⁰.

إن نهج القرافي ليس ابتداءً نهجه أو رأي تشهاده بل هو سبيل خصوص العلماء ، قال أحد المعاصرين :

" تداخل العلوم وربط بعضها ببعض ، فإنك لا تكاد تجد فنا من الفنون العلمية خاليا من استخدام الحكمة أو علم الكلام ، وإن أوجب ذلك ضيقا في العلوم وكثرة للخلاف " ²¹.

أما الأخضري فقد تميز منذ صغره بحرصه المنقطع النظر على نشر العلم وتيسيره وتقريبه من أذهان الباحثين ، وخاصة الناشئة منهم ، ولعل ذلك بسبب صغر سنّه وقرب عهده ببني الصبا ، ولا أدلّ على ذلك من المختصرات التي ألفها نظما ونثرا ، وهذا ما كان رائجا في عصره ... ولعمري لو وجد طريقا إلى تسهيل العلم وتبسيطه عن المختصرات لما اذّخر وسعا في سلوكها.

وفضلا عن كون الأخضري قد رزق السعادة في تأليفه ، فإنه بلغ مرحلة الكمال والنضج الروحي قلما تيسّر للشيوخ - بله الشباب.

وهذا ما يظهر بجلاء استمساكه الدائم بحبل الاعتزال والخلوة سواء كان ذلك في بلده بنطوس أو في بلد مصيفة وهو سطيف ²².

وكان عزوفه عن مقاربة السلاطين والأمراء وغشيان مجالسهم ، على الرغم من نفوذ كلمة شيوخ الطرق عندهم وسطوة الدراويش والمجاذيب في جموع الخاصة فضلا عن العامة.

ومن الأشياء الهامة التي ينبغي إبرازها أن الشيخ الخروبي المعروف بكونه وارث عن رجال الشيخ زروق وخليفته على طريقته المتفرعة عن الشاذلية ، أثر بشخصه كثيرا على تلميذه الأخضري ، حيث ورّثه تصوفا نقيّا من كلّ الشوائب . برّيتا من كل ما يسيء إلى الشريعة وتبحره في مختلف الفنون.

وكذلك كان لتجربة الخروبي مع أصحاب الطريقة الجزولية في المغرب الأقصى والحنة التي أصابته بسببهم انعكاس مهم على الجانب الصوفي من شخصية الأخضري ²³.

حيث إنه ألزم نفسه التعامل بصرامة مع ما يليقه شيوخ الطرق إلى مريديهم من أحزاب وأوراد ووظائف وغيرها ، وعرضها على بساط النقد والتمحيص قبل قبولها والتسليم بها²⁴.

ومما تجدر الإشارة إليه من جوانب الحظوظ وكوامل النبوغ أيضا ، البيئة العلمية المتوارثة في المغرب التي ساعدت الأخضرى كثيرا على التحصيل وما ورثه من الجيل الذي قبله - أي القرن التاسع - والذي تميز بعدد غير قليل من العلماء الكبار أمثال : عبد الرحمن الثعالبي.

كما ينبغي التعرّيج على عنصر الاستعداد الفطري والنفسي للإمام الأخضرى وذلك يّين في هضمه لهذه العلوم المتنوعة ، ومن ذلك منظومة السراج في الفلك وعمره سبع عشرة سنة ونظم أزهار المطالب (علم الاسطرلاب) وعمره عشرون سنة ، وكذا المنظومة القدسية وسنه أربع وعشرين سنة.... وهذا يوحى بقوة وعقل وإرادة صلبة : "في عصر متردي في أحواله، الجذب في تراثه الفكري"²⁵. وقد أشار الأخضرى إلى هذا العصر :

لاسيما في عاشر القرون * ذي الجهل والفساد والفتون.

و في الأخير نعجز عن أن نتحدث عن جوانب الإبداع عند القراني فذلك متعذر لتعدد جوانب الإبداع عند هذه الشخصية... حتى كأن الله جمع فيه ما تفرق في غيره ، فهو العالم الرياضي والمتكلم المنظر، وهو البلاغي والمنطقي والفقيه الفروعي ورأس الأصوليين ، ولعل تعدد الجوانب يبرز دستورته الذي وضعه ، وتعين على كل من امتد في العلم باعه وعظّم به نفعه وانتفاعه.. أن يستكثر من الاطلاع على الأسرار الربانية وما أودعه الله في المخلوقات الجسمانية²⁶.

الخاتمة والنتائج :

إن تربية الملكات واستمداد المواهب هو ديدن العلماء وأهل التحصيل ، ولاشك أن الملكة القرافية ، والموهبة الأخضرية قد أبانتا عن قدر كبير من عوامل النبوغ والتفوق ، فكل منهما كان رائد الحلبة بين أقرانه ، حيث بزّهم جميعا من خلال تنوع المعارف واختلاف العلوم ، وشكّل فكرُ الرجلين بين من عايشوهما من أهل العلم والبصيرة فتحا فريدا تناقلته الرواية وسطّرت له السير . فالقراني يصدق عليه المثل " كل الصيد في جوف الفرا " .

فقد حوى علومًا شتى من خلال مؤلفاته ومخطوطاته والتي هي عمل مؤسسي في عصرنا الحاضر ، بالإضافة إلى لم شمل التخصصات وجعلها طيعة بين يديه يوجهها حيث يشاء .

فالرجل الذي عُرف فقيها لا يبارى وأصوليا لا يشق له غبار ، وذلك يّين في الفروق والذخيرة ، والخصوص والعموم، قد ضرب في العلوم الأخرى بسهم ، وأيّ سهم بل أصبح فيها كأنه لا يُحسن سواها .

فالعقيدة قد أمدّها برائعه "الأمنية في إدراك النية" ، واللسان العربي أعّدق عليه بكتاب "الخصائص" الذي حيّر أولي العربية ومن شايهم، وثالثة الإبداع تلك الصناعة التقنية العجيبة التي سارت بها الركبان ، ولو لم أكن أبالغ لقلت أن الأمة لو اكتفت بعلومه في هذه التخصصات لكفتها.

أما الثاني - الإمام الأخضرى- فهو سليل الأول، وأنطلق من حيث انتهى القراني لأقول :

أنه قد يفتح للآخر ما لا يفتح للأول ، فقد اهتمت عليه المعارف والمواهب ورُزق حسن التأليف والتصنيف ، وتلقت الأمة مؤلفاته بالقبول وتنوعت معارفه حسب الفئات العمرية ، ومن زكاة علومه أنها تبصرة للمبتدي وتذكرة للمنتهي .

فالسلم المروني قد ازدهت به الحواضر وازدانت به المحاضر ، كيف لا وهو من ترجم إلى اللغات الأخرى. وقس على باقي مؤلفاته.

إن بداية الأخضري المحرقة جعلت نهايته مشرقة.

ولو أردنا أن نعقد مقارنة بين العلمين ، فنقول عن القواسم المشتركة هي :

- 1/ أن الرجلين من منطقة إفريقية وتوحد أصليهما فكلاهما من الرقعة المغاربية .
 - 2/ أن مذهبهما السلوكي تميز بالاعتدال أي غير موغل فالجانب الصوفي محكوم بالعلم الصحيح .
 - 3/ الموسوعية ، فالقراي والأخضري قد حشرا جمعا من العلوم الطبيعية والحسابية ...
 - 4/ الإحاطة بمعارف العصر إلى أقصى ما يمكن أن يطلب .
 - 5/ عوامل النبوغ ويشهد لذلك ما روي عن القراي من معرفة في حداثة سنة ، وأن الأخضري قد بسط يده على علوم احتواها ، وهو في العقد الثاني من عمره.
- أما التفردات :

- 1/ البيئة المصرية بتنوعها الثقافي كان لها الأثر البالغ فيما وصل إليه القراي من التبحر في سائر الفنون وذيق صيته بين علماء عصره.
- عكس البيئة المغاربية التي تجعل العلماء منها يميلون إلى الاختصار والاقتصار على شرح الدواوين التقليدية ، وتحشيتها ، والإقلال من التأليف.
- 2/ الإمام القراي يميل إلى التفريع بعد التأصيل مثل الذخيرة ، أما الأخضري فينحوا إلى التأصيل.
- 3/ جانب العزلة والخلوة التي اتسمت بها المدرسة الصوفية المغربية ، والتي ينتمي إليها الأخضري ، بخلاف الإمام القراي فإنه لم ينطبع بالخلوة بل هو عكس ذلك.
- 4/ إن القراي عاش في بيئة استقرار سياسي انعكس على الحياة الفكرية والعلمية ، ولذلك كانت مؤثلا لكثير من العلماء.

أما الأخضري فإن بيئته غير المستقرة سياسيا أثرت سلبا على نتاجه المعرفي والعلمي .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

مراجع الدراسة :

- الأعلام للزركلي ، دار العلم للملايين الطبعة: 15/ 2002 م.
- الإمام شهاب الدين القرافي حلقة وصل بين المشرق والمغرب في مذهب مالك في القرن السابع، الصغير بن عبدالسلام الوكيل . 1996م.
- أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ط1/ 1998 ، دار الغرب الإسلامي.
- تراث الشيخ عبد الرحمن الأخضر من خلال بعض خزائن المخطوطات والمكتبات ، حمدادو بن عمر (كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية. جامعة وهران). موقع الشهاب .
- الخصائص للقرافي ، دراسة وتحقيق ناجي محمدو حين عبد الحليل ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، كلية اللغة العربية.
- الديباج المذهب ، ابن فرحون، تحقيق وتعليق: الدكتور محمد الأحمد أبو النور دار التراث للطبع والنشر، القاهرة.
- كشف الظنون ، حاجي خليفة ، مكتبة المثنى - بغداد ، 1941م.
- معجم المؤلفين ، عمر بن رضا كحالة ، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي. يوسف بن تغري بردي ، حققه ووضع حواشيه: دكتور محمد أمين الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. بدون طبعة وبدون تاريخ.
- صفحات من صبر العلماء على شذائد العلم والتحصيل ، عبدالفتاح أبو غدة ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، ط7، 2003.
- عبد الرحمن الأخضر العالم الصوفي الذي تفوق في عصره ، بوزياني الدراجي ، ط2، 2009، دار الأمل للدراسات.
- العلامة الموسوعي عبد الرحمن الأخضر شخصيته ومواقفه وآثاره، فوزي مصمودي، دار موفم للنشر.
- العقد المنظوم في الخصوص والعموم للقرافي ، دراسة وتحقيق أحمد الختم عبد الله ط1/ 1999 المكتبة المكية.
- الفروق للقرافي ، عالم الكتب ، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- شهاب الدين القرافي وجهوده النحوية والصرفية ، إبراهيم بن حمد الحميميد ، جامعة محمد بن سعود ، كلية اللغة العربية ، 1425. (رسالة دكتوراه).
- شيخ الإسلام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور ، محمد الحبيب بن الخوجة، طبعة وزارة الأوقاف بقطر 2004 .
- الوافي بالوفيات . الصفدي ، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، الناشر: دار إحياء التراث بيروت ، 2000م.

- ¹ - الديباج المذهب 236، 237. الأعلام للزركلي 94/1 ، 95. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي/232، 233. مقدمة محقق كتاب- العقد المنظوم للقراي- أحمد الختم عبد الله/34، 47. الوافي بالوفيات/6 146 ، 147.
- ² - الأعلام 331/3، 332. معجم المؤلفين 5/ 187، 188. كشف الظنون 2/998. تاريخ الجزائر الثقافي 1/ 500. وراجع العلامة الموسوعي عبدالرحمن الأخضرى شخصيته ومواقفه وآثاره للأستاذ فوزي مصمودي .
- ³ - مقدّمة محقق العقد المنظوم 12/1-18 .
- ⁴ - الأعلام للزركلي 95/1.
- ⁵ - الديباج المذهب ص238.
- ⁶ - المصدر نفسه ص236.
- ⁷ - تاريخ الجزائر الثقافي 384/1.
- ⁸ - المرجع نفسه 470/1.
- ⁹ - المرجع نفسه 482/1.
- ¹⁰ - صفحات من صبر العلماء ، ص18.
- ¹¹ - شهاب الدين القرافي وجهوده النحوية والتصريفية ص10. بتصرف.
- ¹² - المرجع نفسه، نقلا عن نفائس الأصول .
- ¹³ - الفروق 11/4.
- ¹⁴ - الفروق 3/1.
- ¹⁵ - شهاب الدين القرافي وجهوده النحوية والتصريفية ص18.
- ¹⁶ - الفروق 169/1.
- ¹⁷ - الفروق 102/4.
- ¹⁸ - الفروق 64/1.
- ¹⁹ - شهاب الدين القرافي وجهوده النحوية والتصريفية ص 17. نقلا عن كتاب الذخيرة .
- ²⁰ - الفروق 170/4.
- ²¹ - شيخ الإسلام الأكبر محمد الطاهر ابن عاشور 240/1.
- ²² - تاريخ الجزائر الثقافي 1/ 500-503 . تراث الشيخ الأخضرى ، حمدادو بن عمر ، موقع الشهاب.
- ²³ - تاريخ الجزائر الثقافي 503-500/1 .
- ²⁴ - تراث الشيخ الأخضرى ، حمدادو بن عمر ، موقع الشهاب.
- ²⁵ - عبدالرحمن الأخضرى العالم الصوفي الذي تفوق في عصره ، ص16.
- ²⁶ - الإمام شهاب الدين القرافي حلقة وصل بين المشرق والمغرب في مذهب مالك في القرن السابع. ج2/8.